مدخل إلى جمالية الخطاب في كتاب الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي (مقاربة أسلوبية)

An introduction to the aesthetics of discourse in the book of friendship and friend by Abu Hayyan al-Tawhidi, (stylistic approach)

بلبال بنعلية[1]

أ.د.زوقاي محمد♣

تاريخ الإرسال: 2021/12/23	تاريخ القبول: 2022/03/24	تاريخ النشر: 2023/05/10

الملخص:

يتلخّص مضمون هذا المقال، في إبراز الأبعاد الجمالية في كتاب الصّداقة والصّديق لأبي حيّان التّوحيدي وفق مقاربة أسلوبية بلاغية، من خلال دراسة بعض النماذج المختارة منه، حيثتطرقنا في الشق النظري، إلى الصداقة، ثم التعريف بأبي حيان التوحيدي، وكتابه الصّداقة والصّديقكإطار عام للبحث، أما في الشق التّطبيقي فقد ركّزنا فيه على الأبعاد الجمالية في مدونتنا المختارة متمثلة فيما أبرزته النّماذج المدروسة من أبعاد جمالية وفنية، ذات أسلوب بلاغي معبّروالتي استعملها الكاتب في رسالته، لنخلَص إلى أهمّ النّتائج التي نذكر منها: أن كتاب الصّداقة والصّديق رسالة تراثية شاملة لأروع المعاني وأجود الأساليب بما يحويه من تداخلات نصيّة وحكم وأمثال وأشعار.

الكلمات المفتاحية: الصّداقة والصّديق، التّوحيدي، التّناص، الاستهلال.

Abstract:

This article wants to shed light upon the aesthetic dimensions in the book Sadaka wa Seddik by Abu Hayyan al-Tawhidi according to a rhetorical stylistic approach, by studying some selected models from it. As for the practical part, we focused on the aesthetic dimensions in our work, represented by what the studied models highlighted aesthetic and artistic

[1]جامعة يحي فارس المدية، benaliabelbal@gmail.com

♣جامعة يحي فارس المدية، zougaiem@yahoo.fr

dimensions with an expressive rhetorical style, which the writer used in his letter, in order to conclude the most important results that we mention among them: The book of Sadaka was Seddik is a comprehensive heritage message with the most wonderful meanings and the finest The methods, including textual overlaps, wisdom, proverbs, and poems.

***Key words**: Friendship and friend. Monotheistic. intertextuality, initiation.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: بلبال بنعلية، belbal.benalia@univ-medea.dz

1.مقدمة:

شهد القرن الرّابع الهجري فترة مشرقة من التّراث العربي، حيث تطوّرت العلوم وازدهرت الحركة الأدبية وتلاقحت الثّقافات العربية بغيرها من الثّقافات العالمية، وزاد الاهتمام بالتّرجمة، وكثُر الأعلام في الفكر والأدب.

والتّوحيدي أحد هؤلاء المفكرين والمبدعين صاحب الثّقافة الواسعة والعلم الغزير، والأسلوب البارع والحس المرهف، فكانت كتاباته مستمدّة من المحيط الذي يعيش فيه والبيئة التي ترعرع فيها غير منغلقة على الآخر بل منفتحة عليه،

ويعتبرُ كتابه الصّداقة والصّديق من أبدع ماكتبه أبو حيان التّوحيدي، يدورموضوعه حول الصّداقة والصّديق ويضم الكثير من أقوال الحكماء والأدباء والشّعراء والفلاسفة في شروطالصّديق وصفات الصّداقة وخيانة الأصدقاء وعلاقاتهم، وتعود أهميّة كتابه إلى أنّه قد لخّص فيه بشكل شامل موضوع الصّداقة، وجمع العديد من الأقوال المأثورة في والصّداقة؛ حيث سنحاول اختيار نماذج لدراستها عبر إبراز أبعادها الجمالية والفنية وفق دراسة أسلوبية بلاغية، لاستكشاف خبايا التراث الأدبي القديم وإظهارها على النحو الذي يريده المتلقي، ولقد تأسس البحث على إشكالية مهمة حاولنا الإجابة عليها هي:

ماهي أهم الأبعاد الجمالية والفنية في كتاب الصدقة والصديق عند التوحيدي؟ وإلى أي ما مدى ساهم تأثير الخصائص الفنية والجمالية للأدب في القرن الرابع الهجري على كتابه؟

2.الصداقة:

الصّداقة خلق وقيمة مثلى تهدف إلى جعل الحياة بين الأشخاص طيبة، وعلاقاتهم مترابطة يسعون إلى تحقيقها فهي رابط اجتماعي تنمو وتستر وتندثر بحسب طبيعة المجتمع.

الصّداقة عنصر في نظام أخلاقي قيمي متكامل كان للإسلام دور في تطويرها منذ ظهوره، ونتيجة للتطورات الحضارية الكبرى التي عرفها المجتمع تكشفت أنماط من العلاقات الجديدة، وظهرت روابط انعدمت فيها العصبية القبلية ومما جاء في الصداقة عن الخلفاء الراشدين عمر بنالخطاب والإمام على بن طالب في حسن معاملة الصديق،وحسن اختياره[1]. يقول ابن المقفع: "ابذل لصديقك دمك ومالك، ولمعرفتك رفدك ومحضرك، وللعامة بشرك وتحننك، ولعدوك عدلك وإنصافك، واضنن بدينك وعرضك على كل أحد"[2]. فالصّديق يستحق بذل الدم والمال أي النفس والنّفيس وتلك هي الصداقة الحقة. ويقول أبو نصية التميمي: "...فالصّداقة المتينة لا تحل في نفس إلا هذبت أخلاقها الذميمة؛ فالمتكبر تنزل به الصّداقة إلى أن يتواضع لأصدقائه، وسريع الغضب تضع الصداقة في نفسه شيئاً من كظم الغيظ، ويجلس لأصدقائه في حلم وأناة، وربما اعتاد التواضع والحلم، فيصير بعدُ متواضعاً حليماً.."[3]. بمعنى أنّ الصّداقة تهذّب النفس وتزيل الخلق الذّميم، وتجعل الصّديق متواضعا كاظما للغيظ حليما.

3. التعريف بأبي حيان التوحيدي(400-310هـ):

هو أبو حيّان عليّ بن محمد بن العبّاس التّوحيدي المعروف بأبي حيّان التّوحيدي، ولد(310هـ) عشر وثلاثمائة[4]، كان بارعا في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه وعلم الكلام على رأي المعتزلة، معجبا بالجاحظ وسلك في تصانيفه مسلكه. نعته ياقوت الحموي بشيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ومحقق الكلام ومتكلم المحققين وإمام البلغاء[5]. يقول عنه شمس الدين الذهبي هو: أَبُو حَيَّانَ عَلِيُّ بنُ مُحَمَّدِ بنِ العَبَّاسِ البَغْدَادِيُّ، الصُّوْفِيُّ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ الأَدبيَة وَالفلسفيَة، وَيُقَالُ: كَانَ مِنْ أَعيَان الشَّافِعِيَّة، ولَهُ مُصَنّفٌ كَبِيْر فِي تَصوُّفِ الحُكَمَاءِ، وَزُهَّاد الفَلاَسِفَة، وَكِتَابٌ سَمَّاهُ (البصَائِرَ وَالذَّخَائِرَ)، وَكِتَاب (الصَّديق والصداقة)، وَكِتَاب (المقَابسَات)، وَكِتَاب (مَثَالب الوَزِيْرين) ، يَعْنِي ابْن العَمِيْد وَابْن عَبَّاد - وَغيرُ ذَلِكَ.وَهُوَ الَّذِي نسب نَفْسَه إِلَى التَّوحيد، كَمَا سمَّى ابْنُ تُومرت أَتْبَاعَه بِالمُوحِّدينَ، وَكَمَا يُسَمِّي صُوفيَّةُ الفَلاَسِفَة نُفُوسَهُم بِأَهْل الوحدَة وَبَالاتحَادِيَّة[6].

ويقول تاج الدين بن السبكي في كتابه طبقات الشافعية الكبرى: "الْمُتَكَلّم الصُّوفِي صَاحب المصنفات شيرازي الأَصْل وَقيل نيسابوري وَقيل واسطيكَانَ إِمَامًا فِي النَّحْو واللغة والتصوف فَقِيها مؤرخا صنف البصائر والإشارات وَغَيرهمَا وتفقه على القَاضِي أبي حَامِد المروروذي، وَسمع الحَدِيث من أبي بكر الشَّافِعِي وَأبي سعيد السيرافي وجعفر الْخُلْدِيّوَلَعَلَّه أَخذ عَنهُ التصوف وَغَيرهم، روى عَنهُ عَليّ بن يُوسُف الفامي وَمُحَمّد بن مَنْصُور بن جيكان وَعبد الْكَرِيم بن مُحَمَّد الدَّاودِيّ وَنصر بن عبد الْعَزِيز الْمصْرِيّ الْفَارِسِي وَمُحَمّد ابْن إِبْرَاهِيم ابْن فَارس الشيرازيونوَسمع مِنْهُ أَبُو سعد عبد الرَّحْمَن بن ممجة الْأَصْبَهَانِيّ بشيراز فِي سنة أَرْبَعمِائَة، وقَالَ ابْن النجار لَهُ المصنفات الْحَسَنَة كالبصائر وَغَيرهَا قَالَ وَكَانَ فَقِيرا صَابِرًا متدينا قَالَ وَكَانَ صَحِيح العقيدة"[7].

واختلف في تاريخ وفاته: سنة (414هـ)، وقيل: (380هـ) وقيل: (400هـ) أربع وعشرة وأربعمائة، وقيل: ثمانين وثلاثمائة وقيل أربعمائة[8].

4. كتاب الصداقة والصديق وخصوصيته:

يعتبر كتاب الصّداقة والصّديق من مؤلفات التوحيدي التي تتميز عن مؤلفاته الأخرى بوحدة الموضوع؛ إذ تدور حكايات الكتاب حول موضوع واحد هو الصداقة والصديق.

وهو يتكلم فيه على الصداقة والصديق وأقوال الحكماء والأدباء وغيرهم في شروط الصديق ومزايا الصداقة وخيانة الأصدقاء وما إلى ذلك، ولقد قام التوحيدي بجمع مادته من أقوال الحكماء والفلاسفة والشعراء والأدباء، يقول "أهل الفضل والحكمة، وأصحاب الديانة والمروءة"[9]، وكان السبب في تصنيفه لهذا المؤلَّف جاء بناءً على طلب من الوزير ابن سعدان الذي بلغ إلى سمعه حديث التوحيدي عن الصداقة والألفة والعشرة، يقول من دواعي التأليف " كان سبب إنشاء هذا الكتاب، أني ذكرت منه شيئا لزيد بن رفاعة أبي الخير، فنماه إلى ابن سعدان أبي عبد الله سنة 371 قبل تحمله أعباء الدولة وتدبيره أمر الوزارة، فقال لي ابن سعدان: قال لي عنك زيد كذا وكذا، فقلت: قد كان ذلك، فقال لي: دون هذا الكلام، وصله بصلاته مما يصح عندك ممن تقدم فإن حديث الصديق حلو، ووصف الصاحب المساعد مطرب، فجمعت ما في هذه الرسالة وشغل عن رد القول فيها، وبطوأت أنا عن تحريرها، إلى أن كان من أمره ما كان، فلما كان هذا الوقت وهو رجب سنة 400 عثرت على المودة وبيضتها"[10]، أي أن ما دعاه لتأليف الكتاب؛ هو تشجيع الوزير ابن سعدان له وحثه على تدوين ما سمعه عنه من حديث الصداقة والصديق لكون حديثهما حلو ومطرب.

ولقد ألف التوحيدي كتابه كما جاء في خاتمته نفسها حوالي سنة 400هـ، وكان ذلك بإيعاز من ابن سعدان قبل توليته الوزارة أي سنة 371-981، كما أسلفنا سابقا

وبالتالي بعد مرور ثلاثين سنة على هذه التوصية، وقد كان تأليفه لهذا الكتاب، نتيجة كذلك، للظروف العصيبة التي عاشها الكاتب معظم سني حياته كما تدل على ذلك شكواه وتذمره في مختلف كتبه[11].

ويقوم منهج التوحيدي في كتابه على أساس مختلف، فهو يعتمد (نقل النصوص) من الشعراء الذين كتبوا قصائد أو مقطوعات أو حتى أبياتا مفردة عن الصداقة إلى جانب بعض أقوال لكبار الفلاسفة والمفكرين من مختلف الثقافات اليونانية والفارسية والهندية، بالإضافة طبعًا إلى الحكمة العربية والإسلامية، حيث لا وجودلأبواب وفصول فيه، كما لا توجد عناوين للموضوعات، وإنما الحديث مفصل، والنقل متواصل لشعراء وحكماء بعضهم معروف، والكثير منهم مجهول الاسم[12]. قد كان الكتاب قبل أن يؤلف عبارة عن حكم وأقوال في الصداقة والصديق جعل منها الكاتب مؤلفا متميزا وفريدا من مضمونه ومنهجه.

وقد أدرك التوحيدي نفسه هذه العيوب في كتابه، فكتب بعد أن وصل إلى نصفه تقريبا، يقول: "قد أتت هذه الرسالة على حديث الصداقة والصديق، وما يتصل بالعرفان والخلان والهجر والصلة، والعتب والرضا، والصدق والإخلاص، والرياء والنفاق، والحيلة والخداع، والاستقامة والالتواء، والاستكانة والاحتجاج والاعتذار. ولو أمكن لكان تأليف ذلك أتم ما هو عليه، وأحرى إلى الغاية في ضم الشيء إلى شكله، وصبه في قالبه، فكان رونقه أبين، ورونقه أحسن، ولكن العذر قد تقدم"[13]. أي أن التوحيدي يرغب في اصلاح ما في مؤلفه من عيوب واصفا له بأنه رسالة جاءت في الصداقة والصديق وما يتصل بهما من العرفان والخلان والهجر والصلة وغير ذلك، بمعنى أنه مؤلَّف جاء على عجل وهو على ما هو عليه أنفع وأبين.

5.الأبعاد الجمالية في كتاب الصّداقة والصّديق دراسة أسلوبية:

إنّ الحديث عن القيمة الجماليّة في الكتب التّراثية، متعلق بالنّظام اللّغوي كونه بنية تركيبية توجّه العقل للتأمّل والتدبّر فيه، فاللغة الأدبية لها وظيفة إبلاغية دلالية تحمل في طياتها دلالات معقولة ومعبرة لتحقيق أهداف مرجوة، وهو ما نسعى لاستكشافه من خلال دراستنا لنماذج تطبيقية من كتاب الصّداقة والصّديق للتوحيدي، بغية استخراج ما فيه من أبعاد جماليّة بلاغية وفق دراسة أسلوبية.

1.5بلاغة الاستهلال والتقديم:

المقدمة من كل شيء أوّلهومن ذلك اصطلح مقدمة الكتاب ومقدمة الكلام، والمقدمة هي التي تقع في بداية الكلام، ويستهل بها المؤلف مصنفه، ومن ثم فالمقدمة في الاصطلاح هي ذلك النّص أو الخطاب الذي يتصدّر به الكتاب أو يفتتح به العمل الأدبي وقد يكون في بداية الأثر الأدبي أو العمل الوصفي فيسمى فاتحة الاستهلال أو التقديم والمقدمة، وهو من الأساليب التي تعدّ من المحسّنات الكلامية في بلاغتنا العربية ضمن طيّات علم البديع[14]، فالاستهلال يكشف قيمة جمالية إبداعية بلاغية في النصوص الأدبية والتراثية، وقد عرّفه أرسطو بقوله: "الاستهلال هو إذن بدء الكلام، ويناظرهفي الشعر: المطلع؛ وفي العزف على الناي: الافتتاحية. فتلك كلها بدايات كأنها تفتحالسبيل لما يتلو، والافتتاحية شبيهة بالاستهلال في النوع البرهاني، ذلك أن عازفي الناي إذا عزفوا لحنا جميلا، وضعوه في افتتاح المعزوفة كأنّه لحنها"[15]، أي هو ما يبدأ به الكلام؛ سواء المقدمة أو الافتتاحية أو المطلع فكل هذا استهلال الغرض منه مباشرة الكلام، كما يطلق عليه أحمد الهاشمي مصطلح الافتتاح وهو: "أن تجعل مطلعالكلام من الشعر أو الرسائل دالا على المعنى المقصود من خلال الكلام "[16]. يعني أن له مقصدا محددا ووجهة معينة لتحقيق معنى معين بأسلوب بلاغي.

فالاستهلال ذو بنية فنية وأسلوبية؛ حسب ما ذكره عامر جميل بقوله: "فالاستهلال بنية فنية وأسلوبية تميز عن باقي مفردات النص وبما يتناسب مع موقفهفي أول الكلام، مما يستلزم عناية خاصة تدفعه إلى التميز عن باقي عناصر النص،مع كونه من نتاج النص، إلا أن مفرداته تمتد كخيوط السدى مولدة صورا ومفرداتتنبثق منه، لأنه مشحون بالمعرفة والإحالة والتأويل. وهذا ما يدفع إلى الاستهلال أنيكون منسجما مع بقية كلامه، ولا يكون فيه ما هو منفردا وغريبا وإن يجد التخلصمنه والدخول إلى ما يريد قوله بالتئام وانسجام"[17]، أي أن له جماليات فنية بلاغية تميز النص الاستهلالي عن باقي النص سواء من ناحية المعرفة أو الإحالة والانسجام.

وبالنّظر لكتابنا الصّداقة والصّديق، وجدنا المؤلّف يفتتح مؤَلّفه بالبسملة ثم الدُّعاء ليذكر بعدهما السبب في تأليفه لكتابه هذا، يقول التوحيدي مستهلا كتابه: "بسم الله الرحمن الرحيم"، فالبسملة هي بداية كل شيء في حياتنا؛ وهي سنّة محمودة تجلب الخير لأيّ قول أو عمل وهو ما جرى عليه وسار أغلب الكُتّاب والمؤلّفين والمبدِعين، وهو ما سار عليه التوحيدي غير مبتدع، قاصدا بلوغ المرام من عمله في وصف الصّداقة والصّديق بما جمعه من أقوال متناثرة سعى إلى جمعها بعد أن طلبها منه الأمير ابن سعدان.

أما الدُّعاء في استهلاله، يقول التوحيدي: "اللهم! خذ بأيدينا فقد عثرنا، واستر علينا فقد أعورنا، وارزقنا الألفة التي بها تصلح القلوب، وتنقى الجيوب، حتى نتعايش في هذه الدار مصطلحين على الخير، مؤثرين للتقوى، عاملين شرائط الدين، آخذين بأطراف المروءة، آنفين من ملابسة ما يقدح في ذات البين، متزودين للعافية التي لابد من الشخوص إليها، ولا محيد عن الاطلاع عليها، إنك تؤتي من تشاء ما تشاء"[18]. فالكاتب يسأل الله تعالى أن يأخذ بيده ويقيل عثرته، ويرزقه الألفة التي بها تتصالح القلوب وتتصافى، ويتعايشوا مصطلحين على المودة والخير والتفاهم، فالدعاء هنا شامل للجميع

لا يختص به المؤلّف نفسه دون الآخرين، ويقول أيضا: "اللهم اسمع واستجب، فقد برح الخفاء، وغلب الجفاء، وطال الانتظار، ووقع اليأس، ومرض الأمل، وأشفى الرجاء، والفرج معدوم، وأظن أن الداء في هذا الباب قديم، والبلوى فيه مشهورة، والعجيج منه معتاد"[19]. يدعوا الله تعالى أن يستجيب له لأن الأمر واضح وغلبته ظاهرة مع اليأس وانعدام الفرج، فهو يسأل الله أن يهديه فقد بلغ صوته الأفق.

2.5التناص في كتاب الصداقة والصديق:

يُعتبر التّناص من المفهومات الحديثة في الكتابات النقدية العربية،إذ يعدُّ من مبادئ المقاربة النقدية، والتي بواسطتها يمكن قراءة النص في ضوء استنطاق التأويلات من خلال علاماته، التي تطرح الإشكالية الإنتاجية، ومن خلالها يبرز العمل الفني في علاقته بالأعمال الأخرى.

ولقد عُدَّ الناقد المغربي محمد بنيس من الأوائل الذين من حاولوا الاستفادة من فكرة التناص الغربية وتطبيقاتها، حيث تناول المفهوم بمصطلح التناص، ثم التداخل النصي، ثم هجرة النصوص، في كتابه "ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، مقاربة بنيوية تكوينية"[20]. وهو يرى أن التناص يقوم على ثلاث آليات، هي الاجترار والامتصاص والحوار، كما يعرفه محمد مفتاح بقوله: "وجود علاقي خارجي بين أنواع من الخطاب، وداخلي بين مستويات اللغة"[21]، فالتناص عنده نوعين خارجي بين النصوص والأعمال المختلفة، وداخلي بين أعمال الكاتب نفسه، أما سعيد يقطين فيعرفه بالقول: "إننا نستعمل التفاعل النصي مرادفا لما شاع تحت مفهوم التناص أو المتعاليات النصية كما استعملها جنيت بالأخص"[22]. أي يسمي التناص بالمتعاليات النصية موافقا جيرار جينيت؛ أي "الحالة التي يقصدها جيرار جينيت هنا تشير بالفعل إلى نوع من التماهي الحاصل بين نصين، إما بواسطة تحويل وتغيير نص سابق عبر نص بديل أو الاكتفاء بتقليد نص لنص سابق. وتنتمي لهذا الصنف كل أنواع المعارضات والمحاكاة

الساخرة"[23]، ومن التناص في كتابنا الصّداقة والصّديق نتطرق لبعض النماذج المختارة في ما يلي:

1.2.5القرآن الكريم: يستشهد التوحيدي ويقتبس في رسالته من القرآن الكريم الكثير من الآيات القرآنية، ليصف حالة الصّداقة والصّديق، فهو يستخدم هذا النّص بغرض الوصول إلى المتلقي والتّأثير فيه، فيصل به إلى درجة الإقناع، غير أنه كان يستحضر النصوص القرآنية بدون ذكر السورة ولا رقم الآية، ومن الأمثلة نذكر حديث التّوحيدي: في خلّة الناس، يقول[24]: "ألم تسمعوا الله تعالى يقول: ﴿**الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين**﴾ [سورة الزخرف: 67].عند التأمل في معنى الآية، نجد أن الأصدقاء على معاصي الله في الدنيا يتبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة، لكن الذين تصادقوا على تقوى الله، فإن صداقتهم دائمة في الدنيا والآخرة[25]، وقد استحضر التوحيدي هذه الآية في تداخل مع أقوال السّلف ليشير إلى حال خلة الناس والتي تطلب بالتقوى والورع وهي التي تنفع في الدار الأخرى. وقد أدت الآية المعنى المراد من قول التوحيدي.

كما نجد التوحيدي في صفاء القلوب والابتسامة المتبادلة بين الأصحاب[26]، يستشهد بقوله تعالى: ﴿**لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم**﴾[سورة الأنفال: 63]. أي: لما كان بينهم من العداوة والبغضاء فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان[27]،فهذه الشواهد القرآنيةتقدم لنا صورة عن الصداقة بمفهوم الأخوة الدينية، وقد أدت المعنى المراد لدى الكاتب.

فالتناص في كتاب الصداقة والصديق بين المتن والنصوص القرآنية يحمل في طياته وظيفة فنية جمالية، ووظيفة إقناعية بشكل ظاهر وجلي، وقد كان الاستشهاد بالقرآن الكريم كدليل حجاجي يهدف إلى إبراز القيمة الفنية للمتن واستمالة المتلقي من

جهة أخرى، كما أن اقتباس الشواهد القرآنية تعتبر دعامة لأقوال التوحيدي ولما نقله عن الآخرين في متنه، والتي بانسجامها يتحقق المعنى والهدف الذي يقصده المؤلف.

2.2.5 الحديث النبوي الشريف: فبعد الاستشهاد بالقرآن الكريم في كتاب التوحيدي، جاء في المقام الثاني استشهاده بالحديث النبوي الشريف، بوصفه خطابا جماليا إبداعيا ذا بعد حجاجي دلالي، فأقوال النبي ﷺ عن الصداقة والصديق كثيرة، فيشير لها التوحيدي دون ذكر لمصدر الحديث، من النماذج في مدونتنا:

- "**وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم وآله كان يأكل تمراً ومعه جليس له، فكان النبي صلى الله عليه وسلم وآله إذا رأى حشفة عزلها، فقال جليسه: يا رسول الله أعطني الحشفة حتى آكلها، قال: لا أرضى لجليسي إلا ما أرضاه لنفسي**"[28]. فهذا الخطاب استعمله التوحيدي للتوضيح أن النبي ﷺ هذا خلقه مع الجليس فكيف مع الصديق. المقصود هنا أن للصداقة حقوق يجب مراعاتها مع الجليس ومع الصديق.

- ومن الاستشهاد بالحديث أيضا، قوله ﷺ: "**مداراة الناس صدقة**"[29]، فالمداراة هي اللطافة والملاينة وحسن الصحبة والاحتمال، وهكذا الحال بين الناس فكيف بين الأصدقاء والأصحاب.

- "قال النبي ﷺ فيما رواه لنا ابن شاهين: **تصافحوا فإن التصافح يذهب غل الصدور، وتهادوا فإن الهدية تذهب السخيمة**"[30]، فالتّصافح يذهب الغل والحقد، والهدية تذهب الضغينة وتصفي القلوب، فاستشهاد التوحيدي بالأحاديث النبوية إنما جاء لإثبات أن للصداقة حقوق تتوطد وترتبط بالود والأخوة والتصافح والتلاحم، وقد أدت الدلالات المقصودة منها في كتابه كوظيفة تربوية توجيهية وتعزيز الروح والأخوة الإسلامية.

3.2.5الشعر: يُمثّل التّداخل بين النّثر والشّعر في التّراث الأدبي ظاهرة قديمة وسمة مشتركة بين مختلف الأجناس النّثرية ، وقد برزت هذا التّداخل منذ أوائل القرن الثالث الهجري حيث استخدم كُتّاب الرّسائل النّثر للكتابة في أغراض استأثر بها الشعر[31]. إن استدعاء التوحيدي للنصوص الشعرية في كتابه جاء لتصوير مشاعره ومشاعر قائليها موافقة في ذلك غرضه العام من الكتاب أي حول الصداقة والصديق وأحوالهم فتارة للنفي وتارة للإثبات سواء مدح أو ذم، ومن الاستشهاد بالشّعر في مدونتنا ونذكر النّماذج التالية:

- يقول التوحيدي في حديث الصديق حلو، ووصف الصّاحب المساعد مطرب، أنشدني أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الكاتب الصابي في إخوان الزّمان لنفسه[32]:

أيا ربِّ كُلُّ الناسِ أبناءُ علةٍ ... أما تعثرُ الدنيا بصديقِ
وجوهٌ بها من مُضْمَرِ الغِلِّ شاهدٌ ... ذواتُ أديمٍ في النفاقِ صفيقِ
إذا اعترضُوا عندَ اللقاءِ فإنهم ... قذىً لعيونٍ أوشَجاً لحُلُوقِ
وإن أظهروا بَرْدَ الودودِ وظلهُ ... أسَرُّوا من الشَّحْناءِ حرَّ حريقِ
أخو وحدةٍ قد آنستني كأنني ... بها نازلٌ في مَعْشرٍ ورفيقِ
فذلكَ خيرٌ للفتى من ثوائِهِ ... بمسبعةٍ من صاحبٍ وصديقِ

يتوافق الشاعر مع التوحيدي الكاتب، في أن الصديق معدوم ذلك أن النفوس تضمر الشّر وراء الخير، وجدير بمن يصاحب هؤلاء الناس على وصف الشاعر، أي يكون على دراية وعلم بمن يصادق، وقد أفاد هذا التداخل بين ما طرحه الكاتب والشاعر في أن الصديق الحقيقي شيء نادر ولو سعى الناس لذلك لصعب عليهم الأمر.

غير أن حسن اختيار الصديق أمر مطلوب، فالصديق بالصديقِ يعرف، فعدوٌّ جاهل خير من صديق جاهل وهنا يورد التوحيدي قول صالح بن عبد القدوس[33]:

بَني عَلَيك بِتَقوى الإله.....فَإِن العَواقِبَ لِلمُتَّقي
وَإِنَّكَ ما تَأت من وَجهة.....تَجِد بابَه غَير مُستَغلق
عَدوك ذو العَقلِ اِبقى عَلَيك.....مِن الصاحِب الجاهِل الأخرَق
وَذو العَقلِ يَأتي جَميل الاِمو.....ر وَيَعمَد لِلأَرشد الاِوفَق

فالإنسان يهدف إلى اختيار الصديق الأوفق مستخدما عقله ورجاحته، وقد وُفِّق هنا الكاتب في استدعاء قول الشاعر وجعله تداخلا نصيا مفيدا ومحققا للمراد.

- ويقول التوحيدي في الصديق حالة الغضب والنصح، مستشهدا بقول الشاعر[34]:

وكان الصديق يزور الصديقَ ... لشرب المدام وعزف القيانِ
فصار الصديق يزور الصديقَ ... لبثِّ الهموم وشكوى الزمانِ

ويقول شاعر آخر:

أتطلب صاحباً لا عيب فيه ... وأي الناس ليس له عيوب

ويقول أخرى:

وصلتك لما كان ودك خالصاً ... وأعرضت لما صار نهباً مقسماً
ولن يلبث الحوض الوثيق بناؤه ... على كثرة الوراد أن يتهدما

قد يوجد اسم الشاعر وقد لا يوجد، وبين هذه وتلك يحاول التوحيدي نقل صورته على الصّداقة والصّديق من خلال نقل مواقف الشّعراء والاستشهاد بأقوالهم، حيث شكّل تداخلها تفاعلها حضورا قويا للخطاب لتوليد دلالات سياقية معبرة في المتن، وهي تؤدي وظيفة بلاغية حِجاجية لأن الشّاعر حُجّة بقوله، كما أن التّوحيدي لا يغفل في مدوّنته عن أي شاهد شعري يثري نصّه الأدبي ويزيده بيانا ورغم كثرتها أوردنا بعض النّماذج للاستئناس لا الحصر.

6.خاتمة:

في ختام بحثنا نخلص إلى النتائج التالية:

- إن موضوع الصّداقة قديم قدم الإنسانية تتجاوب فيه عواطف النفس البشرية، وولع به الأدباء والشّعراء والفلاسفة العلماء، فأمعنوا في حقيقة هذه الرابطة العجيبة وتعريفها وتحديدها وتحليل روابطها ودوافعها ونشوتها ودوامها وفسادها.

- إن التوحيدي الكاتب الموسوعيقد آلمته الحياة، وخدشته، حيث أنه كان مدفوعاً بمزاجه ونفسيته وظروف حياته إلى التفتيش عن الصداقة وإحلالها مكاناً أولياً في علاقاته مع الناس.

- يعد التوحيدي الصداقة عاطفة اصطفائية وفضيلة إنسانية يصعب تحقيقها على الغالب وهي ككل عاطفة أساسية مرتبطة بصميم الحياة الشعورية تتفرع عنها جملة من الفصائل السلوكية والخليفة تضمن لها البقاء والنماء كالعشرة والمؤاخاة والألفية.

- التوحيدي في الاستهلال والتقديم سار على نهج سابقيه غير مبتدع فابتدأ بالبسملة ثم الدعاء ليذكر سبب تأليفه لكتابه ودواعيه لذلك.

- كتاب الصّداقة والصّديق كتاب غني بالتداخلات النصية، أو ما يعرف بالتناص، سواء من القرآن الكريم أو الحديث النبوي أو الشعر أو الأقوال والحكم والأمثال وغيرهم، وقد تطرقنا لبعض النماذج منها، وهي ذات دلالات سياقية وايحائية تحتوي على بعد فني وجمالي، أحدث تفاعلا في المتن.

*** *** ***

7. الهوامش:

[1] ينظر: صالح بن رمضان، عن الاخوة والصداقة في النثر العربي، حوليات الجامعة التونسية، تونس، العدد 30، 1989، ابتداء من281.

[2] وليد الصعيدي، تحبير الوريقات بشرح الثلاثيات، المكتبة الشاملة، ص24.

[3] أبو نصية التميمي، العتاب بين الأصدقاء، مكتبة الملك فهد الوطنية – ط1، الرياض، 2011، ص85.

[4] وليد بن أحمد الحسين الزبيري، إياد بن عبد اللطيف القيسي وآخرون،الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة، مجلة الحكمة، مانشستر – ج2، بريطانيا، 2003، ص1756.

[5] أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، المكتبة العنصرية، ط1، بيروت، 1424، ص6.

[6] ينظر: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3، بيروت، ج17، 1980، ص120-121.

[7] تاج الدين بن السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، ج5، 1413، ص286-287.

[8] وليد بن أحمد الحسين الزبيري،الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة، ص659.

[9] التوحيدي، الصداقة والصديق، تح: إبراهيم الكيلاني، دار الفكر المعاصر، ط4، بيروت، دمشق، 2007، ص29.

[10] المرجع نفسه، ص35.

[11] مجلة دعوة الحق، مجلة شهرية تعنى بالشؤون الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر، العدد78-79، الرابط:

http://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/1817

[12] أحمد طاهر، الصداقة بين شيشرون والتوحيدى (دراسة مقارنة)، 2018/05/28، 2021/12/12، الرابط:

https://www.hamedtaher.com/index.php?option=com_content&view=article&id=960&Itemid=426

[13] التوحيدي، الصداقة والصديق، ص201.

[14] أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، الدار العربية للموسوعات،ط1، بيروت، 2006، ج3، ص19.

[15] أرسطو طالسين، الخطاب، تح/ عبد الرحمان بدوي، دار القلم، بيروت، لبنان، 1979م، ص130.

[16] أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وانشاء لغة العرب، دار الكتب العلمية، ط4، بيروت، لبنان، 2012، ص28.

[17] عامر جميل شامي الراشدي، العنوان والاستهلال في مواقف النفردي، دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 2012، ص97.

[18] التوحيدي، الصداقة والصديق، ص29.

[19] المصدر السابق، ص30.

[20] محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، مقاربة بنيوية تكوينية، دار العودة، ط1، لبنان، 1979، ص253.

[21] محمد مفتاح، التشابه والاختلاف نحو منهجية شمولية، المركز الثقافي العربي،ط1، المغرب، ص44.

[22] سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي: النص والسياق، المركز الثقافي العربي، المغرب، ص92.

[23] حميد لحميداني، القراءة وتوليد الدلالة، المركز الثقافي العربي، ط1، 2003، ص43.

[24] التوحيدي، الصداقة والصديق، ص92.

[25] التفسير الميسر. الرابط: https://publications-img.qurancomplex.gov.sa/?p=139

[26] ينظر: التوحيدي، الصداقة والصديق، ص202.

[27] تفسير ابن كثير، ص185.الرابط:http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/katheer/sura8-aya63.html

[28] التوحيدي، الصداقة والصديق، ص41.

[29] التوحيدي، الصداقة والصديق، ص74.

[30] التوحيدي، الصداقة والصديق، ص181.

[31] صالح بن رمضان، لرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم، منشورات كلية الآداب، تونس، ط1، 2001، ص353.

[32] التوحيدي، الصداقة والصديق، ص36-37.

[33] التوحيدي، الصداقة والصديق، ص38.

[34] المصدر نفسه، ص143.